تفسير
سورة الشعراء

للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحلقة الأولى

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

{طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)}

يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به، أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحِكَمِها، وتعليقها بمناسِبها، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدِيَ بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كُتب عليه الشَّقاء، فكان يَحْزَنُ حُزْنًا شديدًا على عدم إيمانهم حرصًا منه على الخير ونصحًا لهم، فلهذا قال تعالى عنه:

{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} أي: مهلكها وشاقٌّ عليها.[1]

---

(١) قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦].

{أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات،[٢] فإن الهداية بيد الله،[٣] وقد أديت ما عليك من التبليغ،[٤] وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزِّلَها ليؤمنوا بها، فإنه كاف شاف لمن يريد الهداية،[٥] ولهذا قال:

{إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً}، أي: من آيات الاقتراح.[٦]

---

(٢) قال تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨].

(٣) قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦].

(٤) قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]، وقال: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية ٢١-٢٢].

(٥) قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: ٦]، وقال: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [المرسلات].

(٦) آيات الاقتراح هي ـ كما قال المؤلف في تفسير البقرة [آية ١١٨] ـ "التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله، كقولهم: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥]، {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى

{فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ} أي: أعناق المكذبين.

{لَهَا خَاضِعِينَ}، ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا} الآية [الأنعام: ١٥٨].(٧)

أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ} الآية [النساء: ١٥٣]، وقالوا: {لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ...} الآيات [الفرقان: ٧-٨]، وقولِه: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا...} الآيات [الإسراء: ٩٠-٩٣]. فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاءوا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر." اهـ

(٧) تكملة الآية: {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}. وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعًا: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها))، ثم قرأ الآية.

{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} يأمرهم وينهاهم، ويذكِّرهم ما ينفعهم ويضرهم.[٨]

{إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تَنْجَعُ فيهم المواعظ، ولهذا قال:

{فَقَدْ كَذَّبُوا}، أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سَجِيَّةً، لا تتغير ولا تتبدل.

---

(٨) المُحْدَث وصف الإنزال، لا وصف القرآن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ويُعلم أن المُحْدَث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أُنزل جديدًا، فإن الله كان ينزِّل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزَّل أولًا هو قديم بالنسبة إلى المنزَّل آخرًا... وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم..." [الفتاوي ٥٢٢/١٢]

{فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب.[٩]

قال الله منبّهًا على التفكر الذي ينفع صاحبه: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣].

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، {الرَّحِيمُ} الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل

---

(٩) قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٧١].

جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)}

أعاد الباري تعالى قصة موسى وثنَّاها في القرآن،[١٠] ما لم يثنِّ غيرها، لكونها مشتملة على حِكَم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن.

فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال: {أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية.[١١]

---

(١٠) والقرآن كله مثاني، كما قال طاووس مستدلا بقوله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ} [الزمر: ٢٣]، قال: لأن الأنباء والقصص ثُنِّيَتْ فيه.

(١١) {فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى} [النازعات: ٢٤]

{قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة:[١٢] {أَلَا تَتَّقُونَ} اللهَ الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر؟

---

(١٢) قال تعالى: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٣-٤٤].

{قالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤)}

فقال موسى عليه السلام، معتذرًا من ربه، ومبينًا لعذره، وسائلًا له المعونة على هذا الحمل الثقيل: {قَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي}.

فقال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي}. [طه: ٢٥-٣٠].(١٣)

{فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} فأجاب الله طَلِبَتَه، ونبَّأ أخاه هارون، كما نبَّأه، {فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا} أي معاونًا لي على أمري أن يصدقوني.

---

(١٣) وتكملة الحوار: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيرًا * قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} [طه: ٣١-٣٧].

{وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ}، أي: في قتل القبطي، {فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}.

{قالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)}

{قَالَ كَلَّا}، أي: لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطانًا، فلا يصلون إليكما بآياتنا، أنتما ومن اتبعكما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيهِ رأيه وتضليله وقومه.

{فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا} الدالةِ على صدقكما وصحة ما جئتما به.

{إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} أحفظكما وأَكْلَؤُكما.

{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي أَرْسَلَنا إليك لتؤمن به وبنا وتنقاد لعبادته وتُذْعِنَ لتوحيده.

{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} فكُفَّ عنهم عذابك وارفع عنهم يدك، ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.

{قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)}

فلما جاءا فرعون وقالا له ما قال الله لهما لم يؤمن فرعون، ولم يَلِنْ، وجعل يعارض موسى، فـ{قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}، أي: ألم نُنْعِمْ عليك ونَقُمْ بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك ولم تزل كذلك؟

{وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ} وهي قتل موسى للقبطي حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}، الآية [القصص: ١٥].

{وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر، من حيث لا يدري.

{قالَ فَعَلْتُها إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)}

فقال موسى: {فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال[١٤] وسفه، فاستغفرت ربي، فغفر لي.[١٥]

{فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ} حين تراجعتم بقتلي، فهَرَبْت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتكم. {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

---

(١٤) قال تعالى في وصف أهدى خلقه صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي عليه: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: ٧]، وقال: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ} [الشورى: ٥٢]، وعليه: فتعميم الرب جل وعلا في الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم: ((يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديتُه، فاستهدوني أَهْدِكم!)) يشمل حتى أهدى أنبيائه قبل نبوتهم، والله أعلم.

(١٥) {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [القصص: ١٦].

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراضُ جاهلٍ أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولًا أن جرى منه القتل، فبين له موسى، أن قتله كان على وجه الضلال والخطأ، الذي لم يُقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلِمَ مَنَعْتُم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا} وعند التحقيق، يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}؟!

أي: تُدْلِي عليَّ بهذه المنة لأنك سخَّرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أَسْلَمْتَني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتَها عليَّ نعمة، فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلَّمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تَمُتُّ بها وتُدلي بها؟

{قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (٢٣) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥)}

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} وهذا إنكار منه لربه، ظلمًا وعلوًّا، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى.(١٦)

قال: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبَّره بأنواع التدبير، وربَّاه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات وفاطر الأرض والسماوات {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}؟!

---

(١٦) قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤]، قال المؤلف: "ليس جُحْدُهم مستندًا إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم بصحتها، {ظُلْمًا} منهم لحق ربهم ولأنفسهم، {وَعُلُوًّا} على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسل." اهـ

فقال فرعون مُتَجَرْهِمًا،[١٧] ومُعْجَبًا لقومه: {أَلَا تَسْتَمِعُونَ} ما يقول هذا الرجل؟!

(١٧) رجل جِرْهام ومُجَرْهِم: جاد في أمره، والجُرْهُم الجريء في الحرب وغيرها. [لسان العرب]

{قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)}

فقال موسى: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم.

فقال فرعون معاندًا للحق، قادحًا بمن جاء به: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل مَن زعموا أنهم لم يُخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خُلقوا من غير خالق، والعقل عنده أن يُعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والجنون عنده أن يُثْبَتَ الربُّ الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزيَّن لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف: ٥٤].

{قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)}

فقال موسى عليه السلام مجيبًا لإنكار فرعون وتعطيلِه لرب العالمين: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، من سائر المخلوقات.[١٨]

{إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} فقد أديت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مُسْكَة[١٩] من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟

وفيه: إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم، فرميتم أزكى الخلق عقلًا وأكملهم علمًا بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأيَّ شيء تُثْبتون؟

---

(١٨) فائدة لطيفة للدعاة المتَّهمين باتهامات باطلة: أن موسى اتُّهم في نفسه أمام الملأ أنه مجنون، ولم يلتفت إلى الاتهام ولم يدافع عن نفسه، وإنما استمر يدعو إلى الله، {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} [الأحقاف: ٣٥].

(١٩) يقال فيه مُسْكَةٌ من خير، أي: بقية. أفاده في مختار الصحاح.

وإذا جهلتموه، فأيَّ شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأيَّ شيء بعد الله وآياته تؤمنون؟[٢٠] تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم![٢١]

---

(٢٠) قال تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: ٦].

(٢١) قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولـئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]. وقال: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤].

{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)}

فلما خَنَقَتْ فرعونَ الحجةُ وعجَّزتْ قدرتَه وبيانه عن المعارضة {قَالَ} متوعدًا لموسى بسلطانه {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، زعم _ قبحه الله _ أنه قد طمِع في إضلال موسى، وأن لا يتَّخذ إلهًا غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ} أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ} أي: ذكر الحيات، {مُبِينٌ} ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

{وَنَزَعَ يَدَهُ} من جيبه {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها.

{قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)}

{قَالَ} فرعون {لِلْمَلإِ حَوْلَهُ} معارضًا للحق ومن جاء به: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} موَّه عليهم لعلمه بضعف عقولهم أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المتقرر عندهم أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوَّفهم أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، لِيَجُدُّوا ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم.

{فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} أن نفعل به؟

{قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} أي: أخِّرْهما {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} جامعين للناس.

{يَأْتُوكَ} أولئك الحاشرون {بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} أي: ابعث في جميع مدنك التي هي مقر العلم ومعدن السحر مَن يجمع لك كل ساحر ماهر عليم في سحره، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يُري العباد بطلان ما موَّه به فرعون الجاهلُ الضالُّ المضل أن ما جاء به موسى سحر، قيَّضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويُقِرُّ أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر.

{فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)}

فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

{فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.[٢٢]

{وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ} أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود.

{لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صِناعتهم، فنتبعهم، ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفِّقوا للحق، لقالوا: لعلنا

---

(٢٢) {فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طه: ٥٨-٥٩].

نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.

{فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (٤١) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)}

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ} ووصلوا لفرعون، قالوا له: {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} لموسى؟

{قَالَ نَعَمْ} لكم أجر وثواب، {وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} عندي، وعدهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

{قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)}

فلما اجتمعوا للموعد هم وموسى وأهل مصر، وعظهم موسى وذكَّرهم، وقال: {وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ[٢٣] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} [طه: ٦١]، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضًا.

فـ{قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

{فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ} فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس،[٢٤] {وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} فاستعانوا بعزة

---

(٢٣) {يُسْحِتَكُم} و{يَسْحَتَكُم} قراءتان، وهما بمعنى: يهلككم ويستأصلكم.

(٢٤) قال تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ١١٦].

عبد ضعيف، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجبَّر، وحصل له صورةُ مُلْكٍ وجنود، فغرَّتهم تلك الأُبَّهَة،[٢٥] ولم تنفُذ بصائرُهم إلى حقيقة الأمر.

أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه، أنهم غالبون.

{فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ} تبتلع وتأخذ {مَا يَأْفِكُونَ} فالتقفتْ جميعَ ما ألقَوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق، ولا يقاومه.

---

(٢٥) الأُبَّهَة: العظمة والكبر، يقال: تأبَّه الرجل، إذا تكبَّر. [العين]

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)}

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا لعلمهم أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تُنْبِئُ بصدق موسى وصحة ما جاء به.

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} لربهم.

{قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون، إلا عتوًّا وضلالًا وتماديًا في غيِّه وعنادًا، فقال للسحرة: {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}.

يتعجب ويعجِّب قومَه من جراءتهم عليه وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته.

{إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} هذا وهو الذي جمع السحرة، وملؤه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحيِّر الناظرين ويُهِيلهم، ومع ذلك فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يُستنكر على أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان إنه على خلاف حقيقته صدَّقوه.

ثم توعد السحرة فقال: {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ} أي: اليد اليمنى، والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض،[٢٦] {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} لتَخْتَزُوا وتَذِلُّوا.

---

(٢٦) قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣].

{قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)}

فقال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته: {لا ضَيْرَ}[٢٧] أي: لا نبالي بما توعدتنا به، {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} من الكفر والسحر، وغيرهما {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} بموسى من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم.

---

(٢٧) قال البغوي: {لا ضير} لا ضرر.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢)}

ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ليؤمنُنَّ به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكُثون،[٢٨] فلما يئس موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكّن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى:

---

(٢٨) قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [الأعراف: ١٣٠-١٣٥]. قال البغوي: {يَنْكُثُونَ} ينقضون العهد.

{أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي}، أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادَوا ويتمهلوا في ذهابهم.

{إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ} أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سَرَوا كلُّهم مع موسى.

{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)}

{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعًا لقومه: {إِنَّ هَؤُلَاءِ} أي: بني إسرائيل {لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} ونريد أن ننفِّذ غيظَنا في هؤلاء العبيد، الذين أَبِقُوا منا.

{وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة.

{فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)}

فخرج فرعون وجنوده، في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعذار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} أي: بساتين مصر وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعَمَرَتْ بها حاضرتهم وباديهم.

{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} يُعْجب الناظرين، ويُلهي المتأملين، تمتعوا به دهرًا طويلًا وقضَوا بلذته وشهواته عُمْرًا مديدًا على الكفر والفساد والتكبر على العباد والتِّيهِ العظيم.[٢٩]

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا} أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، {بَنِي إِسْرَائِيلَ} الذين جعلوهم من قَبْلُ عبيدَهم، وسخِروا في

---

(٢٩) تَاهَ الرجل يَتِيهُ تِيهًا وتَيْهًا إذا تكبَّر.

أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي المُلْك من يشاء، ويَنْزِعُه ممن يشاء، ويُعِزُّ من يشاء بطاعته، ويُذِلُّ من يشاء بمعصيته.[٣٠]

---

(٣٠) قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦].

{فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)}

{فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ} أي: اتبع قومُ فرعون قومَ موسى وقتَ شروق الشمس، وساقوا خَلْفَهم مُحَثَّين على غيظٍ وحَنَقٍ قادرين.

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} أي رأى كل منهما صاحبه، {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى} شاكين لموسى وحَزِنين {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}.

ف{قَالَ} موسى، مثبِّتًا لهم ومخبرًا لهم بوعد ربه الصادق: {كَلَّا} أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} لما فيه نجاتي ونجاتكم.

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)}

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ} فضربه.

{فَانْفَلَقَ} اثني عشر طريقًا.

{فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ} أي: الجبل {الْعَظِيمِ}، فدخله موسى وقومه.

{وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ} في ذلك المكان {الآخَرِينَ}، أي: فرعون وقومه، قرَّبناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

{وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ} استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ} لم يتخلف منهم عن الغرق أحد.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} عظيمة، على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد قلوبكم.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجَّى موسى ومن معه أجمعين.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)}

أي: واتل يا محمد على الناس نبأ إبراهيم الخليل وخبره الجليل في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته، ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه.

ولذلك قيده بالظرف، فقال: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ}

{قَالُوا} متبجّحين[٣١] بعبادتهم: {نَعْبُدُ أَصْنَامًا} ننحتها ونعملها بأيدينا.

{فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} أي مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا.

---

(٣١) بجَّحه فتبجَّح، أي: فرَّحه ففَرِحَ. [مختار الصحاح]

{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)}

فقال لهم إبراهيم، مبينًا لعدم استحقاقها للعبادة: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ}، فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

{أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ}، فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها، وقال: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ}[الأنبياء: ٦٣]، قالوا له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ}، أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك.

{قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)}

فلجأوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: {بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباءكم كلكم خصوم في الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني، فلا يقدرون.

{إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} هو المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية.

ثم خصص منها بعض الضروريات، فقال:

{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)}

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يُفرد بالعبادة والطاعة، وتُترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تُمْرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرةِ الذنوب.

فهذا دليل قاطع وحجة باهرة لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} [الأنعام: ٨٠]، الآيات.(٣٢)

---

(٣٢) قال تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ

عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ٨٠-٨٣].

الحلقة السابعة

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)}

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} أي: علمًا كثيرًا، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

{وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ} أي: اجعل لي ثناء صدق مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا معظما مثنًى عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ١٠٧-١١١].[٣٣]

{وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} أي: من أهل الجنة، التي يُورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

{وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧]،[٣٤] قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ

---

(٣٣) {وتركنا عليه في الآخرين} أي: وأبقينا عليه ثناءً صادقًا في الآخرين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب معظم مثنى عليه. [المؤلف]

(٣٤) {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، فـ{إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} أي: رحيمًا رءوفًا بحالي، معتنيًا بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له وتبرأ منه. [المؤلف]

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤].[٣٥]

{وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي {لا يَنْفَعُ} فيه {مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو به من العقاب ويستحق جزيل الثواب.[٣٦]

والقلب السليم معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعًا لما جاء عن الله.

---

(٣٥) {لَأَوَّاهٌ} أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه. [المؤلف]

(٣٦) قال الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: باب {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ}، ثم أخرج بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين.»

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب، فقال:

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)}

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ}، أي قربت، {لِلْمُتَّقِينَ} ربَّهم، الذين امتثلوا أوامره واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ} أي برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب.

{لِلْغَاوِينَ} الذين أوضعوا في معاصي الله وتجرأوا على محارمه وكذَّبوا رسله وردوا ما جاءوهم به من الحق.

{وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ} بأنفسهم، أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم.

{فَكُبْكِبُوا فِيهَا}، أي: أُلقوا في النار، {هُمْ}، أي: ما كانوا يعبدون، {وَالْغَاوُونَ} العابدون لها.

{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} من الإنس والجن الذين أزَّهم إلى المعاصي أَزًّا،(٣٧) وتسلَّط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعاته والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم.

---

(٣٧) قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مريم: ٨٣]، وقال المؤلف: وهذا من عقوبة الكافرين أنهم لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين، سلطهم عليهم، وقيضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أَزًّا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجًا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبِّحون لهم الحق، فيَدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهده ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله جزاء له على تولِّيه من وليه وتولِّيه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٩-١٠٠].

{قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)}

{قَالُوا}، أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها:

{تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} في العبادة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووهم برب العالمين إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: {برب العالمين}، إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلِّهم الذين من جملتهم أصنامُهم وأوثانهم.

{وَمَا أَضَلَّنَا} عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي والفسق {إِلَّا الْمُجْرِمُونَ}، وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار.[٣٨]

{فَمَا لَنَا} حينئذ {مِنْ شَافِعِينَ} يشفعون لنا لينقذونا من عذابه.

{وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ}، أي: قريب مصافٍ ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأَيِسُوا من كل خير، وأَبْلَسُوا بما كسبوا، وتمنَّوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا:

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً}، أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها.

{فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}: لنسلم من العقاب ونستحق الثواب.

هيهات! هيهات! قد حيل بينهم وبين ما يشتهون! وقد غلقت منهم الرهون!

---

(٣٨) أخرج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء مرفوعًا: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون))، وروي من حديث أبي ذر مرفوعًا: ((غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال الأئمة المضلون))، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (برقم ١٥٨٢ و١٩٨٩).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الذي ذكرنا لكم ووصفنا: {لَآيَةً} لكم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، مع نزول الآيات.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)}

يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} جميعَهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلَّهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم تكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق.[٣٩]

---

(٣٩) ووجه ذلك أن نوحًا _ عليه السلام _ لم يسبقه رسول، ومع ذلك سجل الله على قومه التكذيب بجميع الرسل ولم يأتهم غير نوح! راجع تفسير الإمام ابن كثير وتفسير العلامة ابن العثيمين تلميذ المؤلف رحمهم الله تعالى.

كذّبوه {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} في النسب[٤٠] {نُوحٌ}، وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشمئزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطبًا بألطف خطاب، كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم:

---

(٤٠) وفي عصرنا من يستدل بهذه الآية على جواز اتخاذ غير المسلمين إخوانًا لنا وخطابهم بذلك، وقد سئل العلامة ابن العثيمين رحمه الله عن مخاطبة الكافر بـ"يا أخي"، فقال: "فهذا حرام، ولا يجوز، إلا أن يكون أخًا له من النسب أو الرضاع، وذلك لأنه إذا انتفت أخوة النسب والرضاع لم يبق إلا أخوة الدين، والكافر ليس أخًا للمؤمن في دينه، وتذكَّر قول نبي الله تعالى نوح: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٥-٤٦]. وأما قول: "صديق"، و"رفيق" ونحوهما، فإذا كانت كلمة عابرة يقصد بها نداء من جهل اسمه منهم، فهذا لا بأس به، وإن قصد بها معناها تودُّدًا وتقرُّبًا منهم، فقد قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [الحشر: ٢٢]. فكل كلمات التلطُّفِ التي يقصد بها الموادة لا يجوز للمؤمن أن يخاطِب بها أحدًا من الكفار." [فتاويه ٣/٤٢-٤٣]

{أَلَا تَتَّقُونَ} الله تعالى، فتتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده.

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}، فكونه رسولًا إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقِّيَ ما أُرسل به إليهم، والإيمانَ به، وأن يشكروا الله تعالى على أنْ خصهم بهذا الرسول الكريم. وكونه أمينًا يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه، ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولًا إليهم أمينًا، فلذلك رتبه بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}، فتتكلفون من المغرم الثقيل.

{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} أرجو بذلك القرب منه والثواب الجزيل، وأما أنتم فمُنْيَتي ومنتهى إرادتي منكم النصح لكم وسلوككم الصراط المستقيم.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}، كرر ذلك _ عليه السلام _ لتكريره دعوة قومه، وطولِ مكثه في ذلك، كما قال تعالى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤]، وقال: {رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا} [نوح: ٥-٦]، الآيات.

{قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)}

فقالوا ردًّا لدعوته ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ}، أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسَقَطهم.[٤١] بهذا يعرف تكبرهم عن الحق وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا _ إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته _ : "بيِّنْ لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك."

ولو تأملوا حق التأمل لعلموا أن أتباعه هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل من سَلَب خاصيةَ عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها، ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل.

وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ}،

---

(٤١) السقط بفتحتين رديء المتاع. [مختار الصحاح]

فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فساده ردَّ دعوته، عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.[٤٢]

---

(٤٢) وقد عد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله هذه الخصلة من مسائل الجاهلية، التي تتجد في أعداء الأنبياء، حيث قال: "الثامنة الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء"، وذكر هذه الآية.

{قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)}

فقال نوح عليه السلام: {وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ}، أي: أعمالُهم وحسابهم على الله، إنما علي التبليغ، وأنتم دَعُوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحقَّ فانقادوا له وكلٌّ له عمله.(٤٣)

{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}، كأنهم _ قبَّحهم الله _ طلبوا منه أن يطرُدهم عنه تكبُّرًا وتجبُّرًا، ليؤمنوا، فقال: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}،

---

(٤٣) قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]. وقال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣-٩٥]. وقال: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩].

فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعلي، كما قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤].

{إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إنِ الأمر إلا لله.

{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)}

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فلم يزدادوا إلا نفورًا،(٤٤) و{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ} من دعوتك إيانا إلى الله وحده:

{لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}، أي: لنقتلك شر قِتْلة بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب، فتَبًّا لهم! ما أقبح هذه المقابلة! يقابلون الناصح

---

(٤٤) من سورة نوح: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)}

الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم بشر مقابلة! لا جرم لمَّا انتهى ظُلْمُهم[٤٥] واشتد كفرهم دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦]، الآيات.[٤٦]

---

(٤٥) يريد: لما بلغ ظلمهم منتهى درجاته وأشد ما يكون... والله أعلم.

(٤٦) وليس من شأن المرسلين الدعاء على قومهم، ولنوح _ عليه السلام _ عذر في ذلك، وهو ما ذكره تعالى في قوله: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: ٣٦]، فكان على حالة خاصة قد بين الله له أن فرصة الإيمان لقومه قد انتهت، وحان وقت عذابهم. وهو أول أولي العزم _ عليه السلام _ قدوة في الصبر والتحمل في الدعوة إلى الله، ومع أنه معذور في دعائه على قومه، فمن شدة تواضعه الصادق وحيائه من ربه عز وجل أنه يندم ويتأثم من دعائه، كما جاء في حديث الشفاعة في الصحيح، يقول يوم القيامة: ((وإنه قد كانت لي دعوة، دعوتها على قومي! نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري...)) صلوات الباري وسلامه عليه! فحسنات الأبرار سيئات عند المقربين!

وهنا: {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا}، أي: أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: {وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

{فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ}، أي: السفينة، {الْمَشْحُونِ} من الخلق والحيوانات.

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ}، أي: بعد نوح ومن معه من المؤمنين: {الْبَاقِينَ}، أي: جميع قومه.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، أي: نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذبه، {لَآيَةً} دالة على صدق رسلنا وصحة ما جاءوا به وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان.

{الرَّحِيمُ} بأوليائه، حيث نجَّى نوحًا ومن معه من أهل الإيمان.

{كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)}

أي: كذبت القبيلة المسماة عادًا رسولَهم هودًا،[٤٧] وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

---

(٤٧) قوم عاد هم أولاد عاد بن إِرَم [بن عَوْص بن سام بن نوح] الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد} [الفجر:٦-٨]، وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل. [ابن كثير بتصرف يسير]

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} في النسب {هُودٌ} بلطف وحسن خطاب: {أَلَا تَتَّقُونَ} الله، فتتركون الشرك وعبادة غيره.

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناءً بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قولَه:

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}، أي: أَدُّوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني وليس ثَمَّ مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجرًا، حتى تستثقلوا ذلك المغرم.

{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} الذي رباهم بنعمه، وأدرَّ عليهم فضله وكرمه، خصوصًا ما ربَّى به أولياءه وأنبياءه.

{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ} أي: مدخل بين الجبال {آيَةً} أي: علامة {تَعْبَثُونَ} أي: تفعلون ذلك عبثًا لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} أي: بركًا ومجابي للمياة {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

{وَإِذَا بَطَشْتُمْ} بالخلق {بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} قتلًا وضربًا وأَخْذَ أموال، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فَخَرُوا، واستكبروا، وقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: ١٥]،(٤٨) واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

---

(٤٨) قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [فصلت: ١٥-١٦].

والريح الصرصر هي الريح العظيمة الشديدة لها صوت مزعج كالرعد القاصف. [المؤلف]

وأيام نحْسات أيام مشؤومات. قال الضحاك: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودامت الرياح عليهم من غير مطر. [أفاده البغوي]

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) }

{فَاتَّقُوا اللَّهَ} واتركوا شرككم وبَطَرَكم {وَأَطِيعُونِ} حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح.

{وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ} أي: أعطاكم {بِمَا تَعْلَمُونَ} أي: أمدكم بما لا يُجهل ولا ينكر من الإنعام.

{أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ} من إبل وبقر وغنم {وَبَنِينَ} أي: وكثرة نَسْل، كثر أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصًا الذكور، أفضل القسمين. هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال:

{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، أي: إني ـ من شفقتي عليكم وبري بكم ـ أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمريتم على كفركم وبغيكم.

{قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)}

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العُتُوّ، فإن قومًا بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تُذيب الجبالَ الصُّمَّ الصِّلابَ، وتتصدع لها أفئدةُ أولي الألباب، وُجودها وعدمها عندهم على حد سواء، لَقوم انتهى ظلمهم، واشتد شَقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا:

{إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}، أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه محن ومنح من الله تعالى، وابتلاء لعباده.

{وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزُّلٌ مع نبيهم وتهكُّمٌ به: إننا على فرضِ أننا نُبعث، فإننا كما أدرَّتْ علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بُعثنا.

{فَكَذَّبُوهُ} أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقًا، لا يَرْدَعهم عنه رادعٌ، {فَأَهْلَكْنَاهُمْ} {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [الحاقة: ٦-٨].(٤٩)

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} على صدق نبينا هود _ عليه السلام _ وصحة ما جاء به وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، مع وجود الآيات المقتضية للإيمان.

---

(٤٩) {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ}، أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف. {عَاتِيَةٍ}، أي: عَتَتْ على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عَتَتْ على عاد وزادت على الحد، كما هو الصحيح.
{حُسُومًا}، أي: نحسًا وشرًّا فظيعًا عليهم فدمرتهم وأهلكتهم. {صَرْعَى}، أي: هلكى موتى. {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض. [المؤلف]

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي أهلك بقوته قوم هود على قوتهم وبطشهم.

{الرَّحِيمُ} بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)}

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ} القبيلة المعروفة في مدائن الحجر.[٥٠]

{الْمُرْسَلِينَ} كذبوا صالحًا عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع.[٥١]

---

(٥٠) الْحِجْر: تقع بوادي القرى بين المدينة والشام. وهو من

وقد سئلت اللجنة الدائمة عن زيارة مدائن صالح بغرض النزهة بها، ومشاهدة الآثار بها، فقالوا بتحريم ذلك، مستدلين بقول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم.)) أخرجاه. انظر فتاويهم (٢٦/٣٩٣).

(٥١) كما سبق بيان ذلك عند قصة نوح [آية ١٠٥].

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ} في النسب، برفق ولين: {أَلَا تَتَّقُونَ} الله تعالى وتدعون الشرك والمعاصي.

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ} من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان.

{أَمِينٌ} تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي، وبما جئت به.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا، {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)}

{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}، أي: نضيد كثير، أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سُدى تتنعمون وتتمتعون كما تتمتع الأنعام وتتركون سدى لا تؤمرون ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله؟!

{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}، أي: بلغت بكم الفَراهة والحِذْق إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصُّمّ الصِّلاب؟!

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)}

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} الذين تجاوزوا الحد.

{الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}، أي: الذين وصْفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه. وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض، وكأن أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلهم الذين قال الله فيهم {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [النحل: ٤٨].[٥٢]

---

(٥٢) من سورة النحل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا

مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)}

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)}

فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا، فقالوا لصالح: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}، أي: قد سحِّرت، فأنت تَهْذِي بما لا معنى له.

{مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، فأي فضيلة فُقْتَنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك؟

{فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، هذا مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم من قسوتهم سألوا آياتِ الاقتراح التي في الغالب لا يفلح من طلبها لكون طَلَبُه مبنيًّا على التعنت، لا على الاسترشاد.

{قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)}

فقال صالح: {هَذِهِ نَاقَةٌ} تخرج من صخرة صَمّاء مَلْساء، ترونها وتشاهدونها بأجمعكم.

{لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}، أي: تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تشربون لبنها، ثم تَصْدُر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

{وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ} بعَقْر أو غيره.

{فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، فخرجتْ واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا واستمروا على طغيانهم.

{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)}

{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ} وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} على صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)}

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم،[٥٣] وكانوا مع شركهم يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح

(٥٣) قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [البقرة: ١١٨].

الذكران، المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم لإسرافهم وعدوانهم.[٥٤]

---

(٥٤) قال تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) } [العنكبوت: ١١٨].

{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)}

فلم يزل ينهاهم حتى {قَالُوا} له {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}، أي: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} أي: المبغضين له الناهين عنه، المحذرين.

{رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ} من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، أي: الباقين في العذاب، وهي امرأته.

{ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا}، أي: حجارة من سجيل.

{فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}، أهلكهم الله عن آخرهم.[٥٥]

---

(٥٥) هناك شبهة عند بعض الناس الجواب السديد عليها مهم جدا، يقولون: لماذا لم يبدأ نبي الله لوط بالدعوة إلى التوحيد، وإنما اقتصر على تحذيرهم من الفاحشة؟ وبنوا على ذلك ما لا يستنبط من قصته استنباطا صحيحا، وطعنوا في دعوة لوط بهتانا وإفكا! فالجواب: إن لوطا من المرسلين، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، هذا من حيث الجملة، أما لوط على الخصوص، فهذه الآيات صريحة: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)}، ففي هذا السياق لم يذكر لوط شيئًا قبل أمره بتقوى الله وطاعة رسوله! وأول التقوى عبادة الله وحده واجتناب الشرك في جميع صوره، ووظيفة المرسلين أن يبينوا معنى ما يدعوهم إليه، فمحال أنه أمرهم بتقوى الله وهم لا يعرفون معنى التقوى ولا يبينه لهم! وعلى هذا، فكل ما بنوه على هذا الزعم الخالي من دليل فهو باطل، والله أعلم.

الحلقة الثالثة عشرة

{كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)}

{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ}: أصحاب الأيكة: أي: البساتين الملتفة أشجارها، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شُعيبًا الذي جاء بما جاء به المرسلون.[٥٦]

---

(٥٦) من سورة الأعراف: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ

قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)}.

قال ابن الملقن في التوضيح (٤٩٧/١٩): "فقد ذكر أهل التاريخ: أن مدين المذكور في الآية هو: ابن إبراهيم. وشعيب: هو ابن صيفون، ويقال: ابن ملكا بن تويت بن مدين بن إبراهيم، وهو ظاهر التلاوة... وذكر ابن قتيبة أن إبراهيم أبو جد شعيب... وعاش ستمائة واثنتين وخمسين سنة فيما ذكر أبو المفاخر إسحاق بن جبريل في تاريخه. وقيل: كان شعيب خطيب الأنبياء. قال عبد الملك بن مروان حدثني عن الحسن. قال: والله ما رئي قط تاركًا لشيء يأمر به، ولا فاعلًا لشيء كان ينهى عنه. قال عبدالملك: والله ما زاد على هذا لو كان العبد الصالح، يعني: شعيبًا، حيث يقول: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} [هود: ٨٨]." انتهى بتصرف يسير.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} الله تعالى، فتتركون ما يسخطه ويغضبه، من الكفر والمعاصي.[٥٧]

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون.

---

(٥٧) قال ابن الملقن في التوضيح (٤٩٧/١٩): "فإن قلت: أصحاب الأيكة هم مدين، وهم الذين أصابهم العذاب يوم الظلة، وقد قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}، ولم يقل أخوهم، قلت: لما عرفهم بالنسب وهو جدهم فيه قال أخوهم، ولما عرفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها النقمة لم يقل أخوهم، وأخرجه عنهم تنويهًا له وتعظيمًا."

{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)}

وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم: {أَوْفُوا الْكَيْلَ} أي: أتموه وأكملوه.

{وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ} الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان.

{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} أي: بالميزان العادل الذي لا يميل.

{وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ} أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)}

قالوا له، مكذبين له، رادين لقوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

{وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} فليس فيك فضيلة اختصصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر وتشابه قلوبهم.

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: {إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}.[٥٨]

---

(٥٨) من سورة إبراهيم: {قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ

{وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} وهذا جراءة منهم وظلم، وقول زور، قد انطووا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل واجه قومه ودعاهم، وجادلهم، وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه ومجادلتِهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكنَّ إخبارَهم عن ظنِّ كَذِبِهِ كَذِبٌ منهم.

{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ} أي: قطع عذاب تستأصلنا.

{إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} كقول إخوانهم {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]، أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تتميم مطلوبِ مَن سألها.

عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)}

{قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)}

{قَالَ} شعيب عليه السلام: {رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس علي إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالمُ بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

{فَكَذَّبُوهُ} أي: صار التكذيب لهم وصفًا والكفر لهم ديدنًا، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

{فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

{إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} دالة على صدق شعيب وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم، {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣].

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي امتنع بقدرته، عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق.

{الرَّحِيمُ} الذي الرحمة وصفه، ومِن آثارها: جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية له. ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجى أولياءه ومن اتبعهم من المؤمنين.

{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)}

لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، وما ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة، ذكر هذا الرسول الكريم، والنبي المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال:

{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فالذي أنزله فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربيهم أيضًا بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به: إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره.

وفي قوله: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصودًا فيه نفعكم وهدايتكم.

{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}، وهو جبريل عليه السلام الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم.

{الأمِينُ} الذي قد أُمن أن يزيد فيه أو ينقص.

{عَلَى قَلْبِكَ} يا محمد {لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}، تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ} وهو أفضل الألسنة، بلغةِ مَن بُعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلًا، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل مضغة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو: اللسان العربي المبين.

{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)}

{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ}، أي: قد بشَّرتْ به كُتُبُ الأولين وصدَّقتْه، وهو لما نَزَلَ طِبْقَ ما أخبرت به صدَّقها، {بَلْ جَاءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ} [الصافات: ٣٧].

{أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً} على صحته، وأنه من الله: {أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

{وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣)}

{وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ} الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرون على التعبير لهم كما ينبغي.

{فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم أن جاءهم على لسان أفصح الخلق وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة، وأنصحِهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له من غير شبهة، إنْ هو إلا محض الكفر والعناد، وأمرٌ قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال:

{كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، أي: أدخلنا التكذيب وأنظمناه في قلوب أهل الإجرام، كما يدخل السِّلْك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفًا لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك:

{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} على تكذيبهم.

{فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

{فَيَقُولُوا} إذ ذاك: {هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ} أي: يطلبون أن يُنظروا ويُمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يُرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)}

يقول تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا} الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يُستهان به، ولا يحتقر، {يَسْتَعْجِلُونَ}؟ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يعجزوننا، ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

{أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ}، أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين، يتمتعون في الدنيا، {ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ} من العذاب.

{مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} من اللذات والشهوات، أي: أي شيء يغني عنهم ويفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة.

القصد: أن الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له. وأما تعجيله وتأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

{وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)}

يخبر تعالى عن كمال عدله، في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكًا وعذابًا إلا بعد أن يعذَّر بهم، ويُبعث فيهم النُّذُر بالآيات البينات، ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكِّرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

{ذِكْرَى} لهم وإقامة حجة عليهم.

{وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء:١٦٥].

ولما بيَّن تعالى كمال القرآن وجلالتَه، نزَّهه عن كل صفة نقص، وحماه وقت نزوله وبعد نزوله من شياطين الجن والإنس، فقال:

{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ} أي: لا يليق بحالهم، ولا يناسبهم، {وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} ذلك.

{إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} قد أُبْعَدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل، أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحومَ حول ساحته، وهذا كقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

{فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)}

ينهى تعالى رسوله أصلًا وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، لكونه شركًا، و{مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [المائدة: ٧٢].

والنهي عن الشيء أمر بضده، فالنهي عن الشرك أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبةً، وخوفًا، ورجاءً، وذلًّا وإنابةً إليه في جميع الأوقات.

ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال:

{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي.

وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أُمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتك، فيكون هذا خصوصًا دالًّا على التأكيد، وزيادة الحق.

فامتثلَ صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمَّم وخصَّص، وذكَّرهم ووعظهم، ولم يُبْق صلى الله عليه وسلم من مقدوره شيئًا من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك، والإحسان التام بهم.

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك، كما قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]، فهذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن

بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كَلًّا على المسلمين، شَرِسَ الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه!؟ وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرًا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأُعْجَبَ بعمله، فهل هذا إلا مِن جهله وتزيين الشيطان وخِدْعه له؟!

ولهذا قال الله لرسوله: {فَإِنْ عَصَوْكَ} في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعِظْهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه.

وهذا لدفع احترازِ وَهْمِ مَن يتوهم أنَّ قوله {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ} للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)}

أعظمُ مساعدٍ للعبد على القيام بما أُمر به: الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال:

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}، والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك.

ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان، فقال:

{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راكعًا وساجدًا خصَّها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه

خشع وذل وأكملها، وبتكميلها يكمُل سائرُ عمله،[٥٩] ويستعين بها على جميع أموره.[٦٠]

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ} لسائر الأصوات على اختلافها وتشتتها وتنوعها.

---

(٥٩) عن أنس مرفوعًا: ((أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحتْ صلح له سائر عمله، وإن فسدتْ فسد سائر عمله.)) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٣٥٨.

(٦٠) قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]. قال المؤلف: وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعًا فيها ما يلزم فيها، وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرًا لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقًا بمناجاة ربه ودعائه، لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفًا وداعيًا يدعوه إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء. اهـ

{الْعَلِيمُ} الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

فاستحضار العبد رؤيةَ الله له في جميع أحواله، وسمعَه لكل ما ينطق به، وعلمَه بما ينطوي عليه قلبه من الهم والعزم والنيات مما يعينه على منزلة الإحسان.

{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)}

هذا جواب لمن قال مِن مكذبي الرسول: إن محمدًا ينزل عليه شيطان. وقولِ مَن قال: إنه شاعر، فقال:

{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ}، أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين.

{تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ} أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل.

{أَثِيمٍ} في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتُناسِب حالُه حالهم.

{يُلْقُونَ} عليه {السَّمْعَ} الذي يسترقونه من السماء.

{وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ}، أي: أكثر ما يلقون إليه كذب، فيَصْدُق واحدة، ويكذب معها مائة،[٦١] فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحقّ بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.[٦٢]

وأما محمد _ صلى الله عليه وسلم _ ، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظمَ مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب، وصدق اللهجة، ونزاهة الأفعال من المحرم.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله ينزل محروسًا محفوظًا، مشتملًا على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي يا أهل

---

(٦١) عن عائشة، قالت: قلت يا رسول الله! إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء فنجده حقًّا؟ قال: ((تلك الكلمة الحق، يَخْطَفُها الجني فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كَذْبة.)) متفق عليه.

(٦٢) الشياطين لهم وحي، وهو وساوسهم وإضلالهم، قال تعالى: {وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام: ١١٢]، وقال: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام: ١٢١].

العقول هذا وأولئك!؟ وهل يشتبهان، إلا على مجنون لا يميز ولا يفرق بين الأشياء!؟

{وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)}

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برَّأه أيضًا من الشِّعر، فقال:

{وَالشُّعَرَاءُ}، أي: هل أنبئكم أيضًا عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت؟

فإنهم {يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} عن طريق الهدى، المقبلون على طريق الغي والردى. فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كلَّ غاوٍ ضالٍّ فاسد.

{أَلَمْ تَرَ} غوايتهم وشدة ضلالهم.

{أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ} من أودية الشعر.

{يَهِيمُونَ}[٦٣] فتارة في مدح، وتارة في قدح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وآونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

{وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ}، أي: هذا وصف الشعراء، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت: هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذاك!

وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب، وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يَحُمْ حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أجبن من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر: هل يطابق حالة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الراشدِ البارِّ، الذي يتبعه كلُّ راشد ومهتدٍ، الذي قد استقام على

---

(٦٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: في كل لغو يخوضون. وقال مجاهد: في كل فن يفتنون. وقال قتادة: يمدحون بالباطل ويستمعون ويهجون بالباطل، فالوادي مثل لفنون الكلام، كما يقال: أنا في واد وأنت في واد. وقيل: {في كل واد يهيمون}، أي: على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافي.

الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعالُه ولم تُخالف أقوالُه أفعالَه؟ الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدقٍ، ولا أمر بشيء إلا كان أولَ الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له؟

فهل تُناسب حالُه حالةَ الشعراء، أو يقاربهم؟! أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كلُّ كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحًا، وأَكْثَرَ مِن ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.[٦٤]

---

(٦٤) أمثال: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، سماهم ابن سيرين أنهم شعراء الصحابة، كما في ترجمة كعب في سير أعلام النبلاء.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصارِ من أهل الشرك والكفر، والذبِّ عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحثِّ على الأخلاق الفاضلة، فقال:

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، ينقلبون إلى موقفٍ وحسابٍ، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة، إلا أحصاها، ولا حقًّا إلا استوفاه.

والحمد لله رب العالمين.[٦٥]

---

(٦٥) أعده موسى الطويل ـ غفر الله له ـ وانتهى منه يوم الأحد الخامس من شهر ربيع الأول عام ١٤٣٨.